مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 5 (رت 74) السنة: 2023

صورة الآخر الإفريقي

في كتاب (رحلاتي لبلاد السافانا) ل الصديق حاج أحمد

Portrait of the African Other
in My Travels to the Land of the Savannah by Al-Siddiq Haj Ahmad

عمارة حمزة[1]
طالب دكتوراه جامعة يحيى فارس – المدية
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة لونيس بن علي،2 البليدة02
amara.hamza@univ-medea.dz
د. سرير محمد
جامعة يحيى فارس – المدية
serir.mohamed@univ-medea.dz

تاريخ الوصول 2023/04/15 القبول 2023/07/12 النشر على الخط 2023/09/15
Received 15/04/2023 Accepted 12/07/2023 Published online 15/09/2023

ملخص:

أتاحت محكيات السفر في أدب الرحلة الجزائري، مقاربات نقدية اشتغلت على آليات الكتابة السردية وإشكالية التجنيس في النصوص الرحلية، وانبثقت ضمن هذه السياقات الخطابية العامة رؤية جديدة في التحليل، والمقاربة النقدية، فولدت ملمحا أدبيا يعنى برصد تمثلات الآخر وتشكلاته في مرآة الذات، فيستحضر تبعا لذلك السارد الرحلي مختلف الأنساق الثقافية التي تشكل مادة خطابه، وتجليات الذات في ممارستها السردية الإبداعية.

وبهذا وقفنا على أن سرد الرحلة، من خلال تجربة الرحالة الصديق حاج أحمد إلى مجموعة من البلدان الإفريقية، يمثل مادة ثرية منفتحة على خطابات معرفية عدة، سعت إلى تصوير الآخر، في سياق سردي رحلي ثقافي للتعريف بحياة الشعوب الإفريقية.

الكلمات المفتاحية: سرد الرحلة، المثاقفة، الذات والآخر، صورة الإفريقي.

Abstract:

Travel narratives in the Algerian travel literature provided critical approaches that worked on the mechanisms of narrative writing and the problem of naturalization of travel texts. Within these general rhetorical contexts, a new vision emerged in analysis and critical approach, generating a literary feature concerned with monitoring the representations of the other and its formations in the mirror of the self. Accordingly the "travel narrative" evoked various cultural loads that constituted the material of his speech as well as the manifestations of the self in its creative narrative practice.

Thus, we determined that the narrative of the journey, through the experience of the traveler friend Haj Ahmed to a group of African countries, that represented a rich material open to several cognitive discourses. In which it sought to portray the other, in the context of a narrative cultural journey, to introduce the lives of African people.

Keywords: *Narrative of the Journey, Erudition, Self and the Other, The Image of the African.*

[1] المؤلّف المراسل: عمارة حمزة البريد الإلكتروني: **amara.hamza@univ-medea.dz**

1- مقدمة:

تحتاج القراءة النقدية للنصوص الرحلية المعاصرة، إلى التسلح بمرجعيات معرفية مختلفة وبوعي نقدي يستثمر النظريات النقدية السياقية والنسقية، من أجل استكناه مضمرات الأنساق المشكلة للأبعاد والحمولات الثقافية التي تشكل نص الرحلة، فالسرد باعتباره تيمة خطابية تؤسس لأدبية هذا الجنس الذي يتغذى على عناصر خطابية متنوعة كالجغرافيا والتاريخ والعنصر الديني والأنثروبولوجي، فهذا الثراء في القيمة المعرفية وتعدد الموضوعات في النص الرحلي الواحد، لم يقف عائقا أمام آليات التجريب السردي وإدخال عناصر بنائية جديدة في أدب الرحلة، مما جعل من الرحلة أنها تتجاوز عند الكتاب الجدد أفق الخطاب الجاهز وكسر أفق التوقع لدى القارئ، وبدل تتبع تسلسل الأحداث نجد هناك تشظي سردي على مستوى المكان، وتمازج بين الواقعي والمتخيل، وبالتالي التجارب السردية الرحلية الحديثة كثيرا ما تولي اهتمامها وتعنى بالمقاربات الجمالية والتأثيث السردي الرفيع الذي ينم عن لغة شعرية ودراية بتقنيات الكتابة الإبداعية، هذا التحول في الكتابة صحبه تحول في المقاربة النقدية للنصوص الرحلية قديمها وحديثها، فاهتم النقاد بالمعالجات الأدبية الجمالية، فهذا الفعل جعلنا نقترب من المسرود بدل السارد، وبالتالي القبض على القيمة الأدبية، أو الوصول إلى الشيء الذي يجعل من الرحلة نصا أدبيا له مميزاته وخصوصياته في القراءة والتلقي والتحليل وفق نظريات نقدية حداثية.

بالإضافة إلى هذا نجد الأنساق الثقافية ملمحا بارز ساهم في تكوين صورة الآخر الاجتماعية والاقتصادية والدينية، والتي تختلف تمثلات حضورها من نص رحلي إلى آخر، وبهذا نجد أن النصوص الرحلية متعددة الأنساق والمضامين حسب العوامل التي تفرضها طبيعة انتقاء المضامين الرحلية والتي يساهم فيها استجابة القارئ الرحلي.

وبالتالي نجد أنفسنا نتساءل:

- أين تكمن القيمة الأدبية لنص رحلتي إلى بلاد السافانا في المقاربة الموضوعية أم القيمة السردية؟
- ما هي الأنساق الثقافية المشكلة لصورة الآخر الإفريقي في رحلاتي لبلاد السفانا؟

وبهذا نسعى إلى تبيان العناصر الجوهرية التي تمثل الخطاب الرحلي، في تصويره ومقاربته للآخر من منظور النقد المقارن، ووفق ما تتيحه السميائيات السردية التي تعنى بمقاربة الخطاب الأدبي من منظور الدلالة التي يروم إلى تحقيقها النص، فالسرد وسيلة من أجل الوقوف على الأدبية في النص الرحلي، ومن ثمة تحقيق الأبعاد والمضامين الجمالية.

2- أدبية الرحلة:

أثار سؤال الأدبية في النصوص الرحلية جدلا واسعا بين النقاد، حيث تمثل القيمة الأدبية للنص الرحلي، محط سؤال الأجناسية، أي لأي جنس أدبي تنتمي الرحلة، ثم إلصاق صفة الأدب بالرحلة كقول الكثير(أدب الرحلات، أدب الرحلة)، ألا يعطي لهذه النصوص شرعية أدبية، أم أن هذا غير كاف ويجب العودة إلى طبيعة النص وقراءة مضامينه السردية، حيث أن الكتاب- الرحالة- يمارسون فعل الكتابة استنادا إلى محكي السفر، أي اشتغال الرحالة على بينة مركزية تقوم على استحضار هذه المادة الحكائية للسفر- كان واقعيا أم متخيلا- ثم إخضاع هذه المادة إلى سياق الرحلة -الملفوظ- أي طريقة عرض الرحلة كمادة قابلة للسرد، فيذهب الناقد المغربي سعيد يقطين إلى "أنّ السردي يشتغل بموضوع(الخطاب) وليس الرحلة(فهي مادة) وبهذا التمييز يختلف عمل

السردي عن عمل غيره من الباحثين الذين اهتموا بالرحلة باعتبارها مادة، ولم يلتفتوا إلى الخطاب، فكانت حصيلة أعمالهم أن انشغلوا بعمل أي رحالة، ولم ينتبهوا إلى نوعية الخطاب الذي ينجزه"[1].

تمثل الأدبية جوهر البحث في النصوص الرحلية لأنها تستثمر البحث في المكونات الأدبية، وتمثل تبعا لذلك مفارقة عن النصوص الأدبية وغير الأدبية الأخرى، فالسرد كعملية ارتحال في الفضاءات والعوالم المختلفة، يحاول الرحالة مقاربة هذه المضامين داخل توليفة تجمع بين سرد الذهاب والإياب، فالخطاب الرحلي هو الذي يؤثر في بنية السرد، التي تجعلنا نقارب الرحلة كخطاب ثقافي معرفي منفتح ومتقاطع مع أجناس أخرى تتعايش داخل إطاره العام.

هذا الأمر يتيح مقاربة نقدية جديدة للنصوص الرحلية وهذا ما نادى به الناقد المغربي عبد النبي ذاكر حين يقول:" واليوم بات ضروريا التمسك بالانفتاح الذي عرفته المقاربات المحايثة للنص الرحلي، على المعالجات الأدبية والجمالية والشعرية والأسلوبية والسيميائية ونظريات التواصل ولسانيات الخطاب والسرديات وكل من شأنه أن يقربنا من السرد بدل المسرود والقول بدل المقول والخطاب بدل المادة والشكل بدل المحتوى، أو ببساطة كل ما يقربنا من (الأدبي) في الرحلي"[2]، فضرورة الاهتمام بالمقاربة النقدية التي تقربنا من الأدبية، تجعلنا نعامل النصوص الرحلية معاملة حذرة باعتبار أن النصوص الرحلية بطبيعتها تختلف قيمتها الأدبية، وبالتالي تختلف مقاربتها الخطابية لبنية السفر وإعادة تشكيلها ضمن قوالب سردية تعمل على ترهين وإعادة بناء الدلالة التخاطبية لأنساق معرفية متنوعة ضمن نص سردي واحد، أي ما يجعل تيمة السفر بحمولاتها التاريخية والجغرافية والدينية والاجتماعية والعادات والتقاليد تخضع لمنطق سردي يجمعها، فيصبح السفر كمادة للحكي خاضعا للأساليب التي يخضعها الرحالة لتأثيث جمالي له حمولته الأيديولوجية وطاقاته السردية التأويلية.

يفرض أحيانا المناخ الثقافي سياق معرفي عام، يحاول أن يؤسس الرحالة من خلاله إعادة بناء الخبر، هذا الأخير الذي" يتوزع بين المقصدية الإخبارية والمقصدية التواصلية، وكل واحدة منها تساهم بطريقة أو بأخرى في التشكيل الخطابي العام لخطاب الرحلة"[3]، وبهذه المقصدية في البناء الخبري يهدف الرحالة إلى تقديم إطار عام للرحلة يضع المتلقي أمام الواقع، هذا الواقع بدوره يحاول أن يعمل على تأثيثه سرديا وفق تطلعات القارئ وشغفه في معرفة جوانب من حياة الآخرين، وبهذا يرى الناقد سعيد جبار أن "خطاب الرحلة إذن يمكن أن يتموقع كوسيط بين زمنين: الماضي/الحاضر، ففي العلاقة الثانية التي ترتبط بالرحالة–السارد بتخطيب الرحلة نكون أمام وضعية إنتاج الصور المخزنة ذهنيا في حافظة الرحالة، وإنتاجها يحكمه وعي الحاضر السردي، وينظمه انطلاقا من هذا الوعي الجديد"[4]، هذا الوعي هو الذي يؤسس لمنطلقات الكتابة الرحلية، حيث تمنح فرصة اكتشاف الآخر مساحة سردية تصاحب

[1]– سعيد يقطين، خطاب الرحلة العربية ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد الأدبي، النادي الثقافي الأدبي، السعودية، عدد09، سبتمبر1993م، ص166.

[2]– ذاكر عبد النبي، مجادلة السائد في الدراسات الرحلية، أعراض الأزمة وأفاق البحث، مجلة آفاق، المغرب، الرباط، عدد62، يناير1999م، ص92.

[3]– سعيد جبار، من السردية إلى التخييلية، بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، منشورات ضفاف، بيروت، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م، ص181. مرجع نفسه، ص206.

[4]– المرجع نفسه، ص206.

ذلك الانفتاح على عوالم الآخر، ليصبح دور السرد في الرحلة" تحرير الفرد من خطر الانغلاق على الذات ومحفز على الانفتاح على الآخرين وقراءة الوجود وتأمله"[1].

فيحاول الرحالة مقاربة الآخر في سياق تأثيثه السردي وفق رؤية تستحضر فضاءات متعددة، فيتناص الرحالة مع نصوص أخرى فنجد أصوات سردية متنوعة تمنح النص الرحلي بعدًا ثقافيا تأويليا" وتوظف هذه النصوص في سياق بناء عوالم ممكنة، تفتح نسق الحكاية على فضاءات الدهشة والغرابة والتواريخ المؤسطرة، وتتداخل الأزمنة وهو ما يترتب عنه على المستوى الأبستمولوجي تنسيب صوت الذات عبر استحضار صوت الآخر، واجتياز الحدود بين أصوات الحاضر والماضي، بين صوت الأسطورة وصوت التاريخ"[2]، فالرحلة سرد منفتح على الانتقال عبر محطات مختلفة من الزمان والمكان، تستدعيها ذاكرة الرحالة على حسب الحاجة إلى بناء صور الذات والآخر بكل استقلالية.

3- ارتحالات السرد في رحلاتي لبلاد السافانا:

تمثل المقاربة السردية للسرديات الرحلية الجزائرية المعاصرة من منظور صورة الآخر على اختلافه، وإن كانت في كثير من النصوص الرحلية مقتصرة على وجهات مكانية محددة كالمشرق أو الغرب، إلا أن هناك الكثير من الكتاب من كانت وجهاتهم مختلفة إلى بلدان لا يعرف عنها القارئ الكثير، مثلما فعل عبد الملك مرتاض في كتابه(رحلاتي العشر وعجائبهن) والتي صور فيها بلا الهند أثناء رحلة علمية قادته إليها، لا يختلف سياق الرحلة ودوافعها عند الكاتب الذي نحن بصدد دراسته كثيرا، فالكاتب الصديق حاج أحمد استثمر في نصه الرحلي ليعرف القارئ والمتلقي بوجهة جديدة ومغايرة اتخذت من دول الجوار الإفريقي وجهة رحلية، والتي تأتي عن قصد كمشروع سردي اشتغل عليه الكاتب في أعماله الروائية كرواية (كاماراد) ورواية(منا قيامة شتات الصحراء)، لتأتي رحلته المعنونة ب(رحلاتي لبلاد السافانا النيجر- مالي- السودان) ضمن سياق السرد الذي يحاول من خلاله الكاتب التعريف ببلدان إفريقيا انطلاقا من جنس أدبي يعتمد على الارتحال والمشاهدة والتجربة ونقل صور الآخر، فالرحلة بذلك إعادة إنتاج حادثة أدبية ونقل صور جديدة قد تعيد مسار التخيل الذي أنتجه الآخر أو قد يكون ترسب في أذهان الكثيرين، هذا ما يحاول أن يبرره الكاتب حين يكتب كتقديم لنص رحلته ما أسماه(على سبيل التفريش) وهي أمور متعلقة بتشييد عوالم الرحلة والأمور التي جعلت أو ساعدت على زرع فطريات سامة، ساهمت في غياب الكتابة عن تلك المناطق باعتبارها تمثل بؤرا للبؤس والحروب الأهلية والأوبئة والموت.

فكتاب (رحلاتي لبلاد السافانا) للكاتب والروائي الجزائري الصديق حاج أحمد المعروف ب (الزيواني) تجربة جديدة تضاف إلى حصاده الإبداعي، يتناول الكاتب في نصه ثلاث نصوص رحلية قادته في أزمنة متفرقة لكل من النيجر ومالي والسودان، فهي مقاربة سردية تقدم لعوالم الصحراء والإنسان تمثل لقاءات التجارب وضرورة التواصل، تمثل فضاء التآلف والاختلاف، تقدم لصور جديدة

[1]- إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، دار العلوم العربية، ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م، ص155.

[2]- محمد بوعزة، سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014م، ص183.

من زاوية نظر كاتبها بعيدا عن أشكال النمطية والقوالب الجاهزة والأحكام المسبقة، فالرحلة هي صورة المعايشة والتجربة والارتحال في الزمان والمكان.

إن عملية تسريد الرحلة قائم على فعل التجريب ليس على مستوى اللغة وفقط، بل على مستوى آخر يمثله الارتحال كوسيلة ضرورية في بناء العوالم السردية للنص، وبالتالي الوقوف ورصد تمثلات الآخر عبر المحطات التي شملتها الرحلة، فهذا الانتقال هو فعل مكاشفة وتصوير ونقل وتأثيث لنص رحلة جديد، يمثل" إنباء عن ذهنية الرحالة وتصوير لمكونات وعيه الثقافي أكثر مما هي حديث عن البلاد موضع المشاهدة، أو إخبار عن أهل البلد أو الإقليم موطن المعاينة، حتى لكأننا لا نجد في البلاد التي يزورها الرحالة إلا ما حمله هو من لوازمها وثابتا من ثوابتها، إنه تفخيم الأنا الثقافية يوازيه خفض قيمة الآخر"[1]

فيختلف حضور الأنا والآخر من نص رحلي إلى آخر، كما أن الأحكام التي يمكن أن يطلقها على الآخر ليست واحدة وتختلف فيها درجة الصدق، وحضور الواقع والمتخيل كلها أمور ليست مضبوطة وإن كانت الرحلة فعل يقوم على المشاهدة والتجربة، فتختلف وظائف الراوي داخل النص الرحلي بين سرد الذات باعتبار الرحلة تمثل تجربة شخصية وسرد الآخر استنادا للوصف والتصوير" ويقف الراوي بهذه الوظائف وغيرها متبئرا في النص الرحلي، حاضرا وممسكا بالحكي وبخيوط البحث، منتجا لسرود يتواصل بها مع القارئ الذي يفترضه كما يفترض تبليغه حقائق ومرويات، مما يفضي إلى نص مذوت من كافة النواحي، فالرواي صورة لذاته قبل أن يكون الرحالة الفاعل، يجسد وضعية المرآة التي تنضد وتخلق المسافة، فتنتج صوتا مضاعفا هو قناة تمرر عبرها أصوات وقنوات أخرى تحقق التفاعل والإدراك" [2]، فالآخر يحضر في الرحلة تبعا وانطالاقا من صورة ذات السارد، فهو الذي يتحكم في توزيع أدوار السرد وفي وظيفة التبليغ وتفريش نصه السردي، فبين الجمالية والقبح والانفتاح والانغلاق، والتواصل والانكماش، ترتسم معالم الرحلة في تمثلها لجوهر الأشياء، عن طريق شعرية الخطاب السردي والبحث في الأنساق التي تشكل الآخر بمختلف حمولاته الثقافية والاجتماعية، وبهذا "لا تتشكل الصورة في الرحلة بمنأى عن سياقاتها المؤسسة، فمقول الرحالة هو جزء من مخطط سردي وإعلامي تشارك في صوغه وبنائه عناصر متداخلة فيما بينها، فلا يحمد البحث عن الصورة في ظاهر ما يوحي به نص الرحلة، بل المفيد جدا استحضار الموقف العام الذي صنع الواقعة النصية، لسنا أمام متخيل فني ينمو مستقلا عن الواقع" [3]، فالبحث عن الصورة يختلف من العمل الفني المتخيل كالرواية والقصة والمسرح إلى الرحلة التي تستند على الوقائع النصية التي تقوم على التجربة التي تكمن ورائها مصوغات ودوافع تجعل من رحلة البحث في صورة الآخر أمرا يختلف من باحث إلى أخر في غياب المبررات أو وجهات نظر الكاتب، لكنها تبقى قراءة تبحث عن قيمة حضور الآخر في السرد الرحلي الجزائري المعاصر.

4- صورة الإنسان في (رحلتي للنيجر):

تتعدد في الرحلة التي بين يدينا هوية النص وأبعاده وأنماط التفاعل، فتتحدد معالم الآخر على ضوء التواصل الإيجابي، محددة أشكال التثاقف بين الأنا والآخر، مبينا الرحالة بذلك أشكال التماثل والاختلاف، مكونا بذلك ذخيرته السردية بإحساس صادق الكثير

[1]- ليلى العبيدي، ملامح من صورة الآخر نماذج من أدب الرحلة القديم، مجلة فصل الخطاب، تيارت، الجزائر، مجلد11، عدد01، مارس 2022، ص138.

[2]-شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنس- آليات الكتابة- خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، القاهرة، ط1، 2002م، ص295.

[3]- الحسن الغشتول، خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز، الرياض، المجلة العربية، د ط، 1439هـ، ص83.

من الصور والانطباعات عن حياة الناس هناك فينقلها دون مساحيق تجميل سردية فنجده يقول في معرض حديثه عن دولة النتيجر وأهلها" الناس هنا بسطاء طيبون، متسامحون، فبحكم كونك سائحا معك الدولار أو اليورو أو الفضة كما لسان البيضان هنا، قلت ستجد نفسك غنيا، نظرا للبنية الاجتماعية الهشة وخيبة الجيوب والبيوت" [1]، البساطة والسماحة من بين الصفات التي تميز الإنسان الإفريقي، فالوضعية الجغرافية لبلدان إفريقية متمثلة في دولة النيجر التي تتخبط في الفقر وقلة التنمية جعلت من الرحالة يرصد أشياء غريبة فالتجارة هنا تخضع للتجزئة، من الماء المعبأ في الأكياس إلى الزيت والبقوليات، إلى تعميرة الشاي والسكر الصباحي تشترى بشكل يومي، فنجده يقول" الغالب في هذا الصنف من الحوانيت، تجارة ما يسرط ويعب، وتجزئته لأوزان وأرطال خفيفة، أكاد أقطع هنا أنها لم تحم حول رأسك يوما ما...لأن القوم تصادقوا، مع قلة الموجود وضيق اليد، لذلك فالبائعون والمشترون ألفوا هذه الفنون المخترعة من المكاييل في معجم السوق الإفريقي.[2] "

إن الوقفات التي يرصدها الرحالة لأوضاع متأزمة من حياة الأفارقة في سبيل تحصيل لقمة العيش يمارسون أصنافا غريبة من الحرف كتلك التي رصدها الرحالة فنجده يقول مستغربا "ثمة صنف آخر من لطائف باعة التجوال، أكاد أقسم أنك لم تشاهده في مكان آخر من العالم الشمالي، ذلك المتعلق بأطفال صغار متجولين يظهر عليهم أثر بشاعة الفقر البادي على محياهم البائس وأسالهم الرثة، يحترفون قص الأظافر، يحملون مقصات بأيديهم وأنبوبة صغيرة، أغلب الظن أنها لسائل صابوني مستخرج يدويا من صابون القطعة" [3]، ثم إن العلاقات المؤقتة التي تفرضها الرحلة بين البيئة المخترقة والرحالة، تتيح له الإقامة المؤقتة هنا داخل هذه البيئة برصد تلك الأشياء التي تختلف عن بيئته وإن كانت الجزائر بولاياتها الجنوبية الكثير من العادات والتقاليد التي تتقاسمها مع دول الجوار، على عكس لو كان الرحالة من بيئة مختلفة فإنه يجد نفسه في "حركة ضوئية مباغتة يقوم بالتقاط معطيات بيئتهم الجغرافية والأنثروبولوجية ليحل في جغرافية أخرى بعدما يكون قد غادر الأول، ضامنا بذلك نقاءه الحضاري، مانعا كل أشكال التأثير الأنثروبولوجي والعقائدي من الولوج إلى مركزيته الثقافية" [4]، إن المسافة التي تكون بين الرحالة والآخر تعنى برصد التغيرات الثقافية والسلوكية للشخصيات التي التقى بها في إطار رحلاته العلمية.

أما عن صورة المرأة فيصورها الصديق حاج أحمد فيقول" المرأة هنا، أسطورة حقا تلتصق بها مفارقة عجيبة وغريبة، فالمحلية الأصلية لا سيما من قبيلة الزرما، ذات العرق الزنجي التليد بمنطقة(دوصو)، عاملة مشتغلة في ذلك التجوال المجيد، أو في مبادلة الأسواق، ولربما صادفت أغلبيتهن، يثنين صبيانهن خلف ظهورهن وشد أولئك الرضع بإزار ملتف، وعقد حزمته من منتصف المقدمة، تجدهن في كل مكان بهذه الصفة، البقاء والتجوال، الظل والشمس" [5]، ثم نجده يقيم بين المرأة في النيجر والمرأة العربية والطارقية من البيضان والحمر على أنها مستريحة ومبجلة، ربما هذه من بين الفروقات والمقارنات بين ثقافتين مختلفتين لكنهما يقتسمان الكثير من الأشياء المشتركة التي قد تجسدها قساوة العيش ومشاركة المرأة للرجل في الكثير من الأعمال.

---

[1]- الصديق حاج أحمد، رحلاتي لبلاد السافانا النيجر-مالي – السودان، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، د ط، 2019م، ص20.

[2]- الصديق حاج أحمد، رحلاتي لبلاد السافانا، ص37.

[3]- المرجع نفسه، ص40.

[4]- كمال بولعسل، رحلة أبي حامد الغرناطي دراسة في فضاء الرحلة، نوميديا للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2013م، ص256.

[5]- الصديق حاج أحمد، رحلاتي لبلاد السافانا، ص44.

فرؤية الصديق حاج أحمد جعلته يتخير تلك المظاهر التي تشكل توليفة السكان في النيجر وطرق معيشتهم، وكيف يستعمل السكان في هذه المنطقة الواتساب كخاصية شبه وحيدة، يشترك فيها الأغنياء والفقراء، كما نجده يصف لنا المظاهر الدينية بنيامي عاصمة النيجر فيقول: "ها أنا أعود أخيرا في نهاية هذه الرحلة للنيجر، لأصدر لك مظهرا آخر من مظاهر هذه العاصمة المضحكة، لا تعجب إذا عثرت في كل شبر منها على مسجد صغير، تكاثر هذا الأخير وزراعته عبر أحياء وحارات المدينة" [1]، يمثل هذا الانتشار الواسع للمساجد الفوضى في التنظيم التي تغيب في الصروح والمعالم الدينية الكبيرة، التي تمثل منارة العلم للشعوب وهوية دينية يرجع إليها الناس.

4-1- تمثلات الآخر في رحلتي لمالي (اقتفاء آثار والقوافل وحوافرها):

إن الحديث في هذا الجزء من الرحلة هو رصد لتمثلات الذات في مرآة الآخر، هي رحلة الاغتراب عن الوطن والبعد عن الأهل في سبيل الحصول على مخطوطة من أجل استكمال الدراسات العليا، هي تجربة رحلية تغذيها دوافع علمية، يخلق من جوها العام فضاء معرفيا وعلميا يستكشف من خلاله خبايا الطرق وتشعباتها، ليعيش خلوة روحية، نوَّع الكاتب في ضمائره السردية بين النصوص الرحلية الثلاث فاعتمد في نص رحلته إلى مالي الضمير الغائب هو فيبدأ نص رحلته بقوله:" كان لعيد الأضحى في ذلك العام الأزوادي مذاق خاص، ارتبط عنده بالأيام التي تلت ذلك العيد، وما جرى من أحوال سفرته لشمال مالي برا يومها، بالرغم من تعود سماعه لحديث التجار من أبناء عمومته بقصرهم الزيواني الطيني، الذين كانوا يتاجرون بالتمر والتبغ، مقابل أغنام أسيدوان وغيرها من فنون تجارة المقايضة بين الدولتين المتجاورتين (الجزائر-مالي)"[2] ، حفت رحلة الحصول على المخطوط اللغوي(مقدم العي المصروم على نظم ابن أُبَّ لآجروم) في إعداد رسالة الماجستير بجامعة الجزائر المركزية، وذلك من أجل إبراز تعاطي تلك الجهة المجهولة من منطقة (الأزواد شمال مالي)، وكذا نفض الغبار عن شخصية علمية كنتية مرموقة، يستذكر الرحالة ماضيه وتاريخ مدينته أدرار، ثم يعود لذكر مسالك العبور نحو مالي عبورا بكل من رقان إلى برج باجي مختار الحدودية، في رحلة التلذذ بنكهة المتاهة، وجوديا وفلسفيا، بخلاء تنزروفت، ثم نجد الرحالة يقدم للقارئ معلومات تتعلق بتاريخ المنطقة فيقول:"في عرف التجار وأهل الناحية هنا عموما، صحراء تنزوفت والأزواد لا يطلبهما ويخطبهما إلا تجار التمر التواتي، أو مهربو البشر والوقود، وكذا السلع الغذائية الجزائرية، قلت عند القوم هنا، العلم والبحث لا يطلب جنوبا، لا سيما من الشباب والجامعات"[3].

وهكذا قد شكل نص الرحلة في مساراته المختلفة تأثيثا يمزج فيه السارد بين زمن الرحلة والفضاءات التي يرصدها، مما شكل تعالقا بين الزمن والفضاء، وهو يمرر للمتلقي مقصدية الإخبار التي يتقاسم فيها مع القارئ الكثير من التجارب التي يرى بأنها قد تفيده في معرفة أحوال ساكنة صحراء مالي، وهو الأمر الذي يضع المتلقي في السياق العام للرحلة وما صادفه فيها من ذكر أصناف المأكولات والمشروبات وكرم أهلها الذين قدموا له كل ما يحتاجه من معلومات حول المخطوط السالف الذكر، وهذا ما نجده يقوله في نهاية رحلته إلى مالي" صباح اليوم الموالي، ودع القوم، شكرهم على الضيافة، فتح صناديقهم وخزائنهم أمامه، وتيسير أسباب

[1]- المرجع نفسه، ص83.

[2]-الصديق حاج أحمد، رحلاتي لبلاد السافانا، ص85.

[3]- المرجع نفسه، ص103.

ذلك من استقلال بالخيمة، وتخصيص خادم معه، وأخيرا السماح له بنقل النسخة الأصل لكيدال، وتصويرها هناك، كل هذا وغيره يجعله يطبع قلبه، على جبين هذه القبيلة الكنتية الميمونة، متمنيا أن يعود يوما لمالي، ويزور عاصمتها باماكو، وما ذلك على الله بعزيز"[1]، ينبني النص كونه يقوم على الواقعية التوثيقية التي صورت الآخر المختلف في ثقافته وعاداته لكنه يمثل امتدادا لصورة الذات التى ترى فيه مكملا لها، المؤلف صور لنا جزء محدود من ثقافة قبيلة كنتية قد تكون تختلف عن صورة مالي العاصمة، وبهذا نجد أن الرحلة تبقى مجرد صورة غير مكتملة تترصد حياة الآخر في جوانب وتهمل أخرى لكنها تبقى مرآة صادقة تعكس عمق التواصل الإيجابي بين الشعوب، ورحلة الصديق حاج أحمد ميثاق سردي يؤسس للوعي بسرد الصحراء، هذا العالم المنفتح على دهشة التأويل.

4-2- انطباعات عن صورة السودان في نص رحلة (رحلتي إلى السودان، موسم الهجرة إلى الجنوب):

تأتي تجربة الرحلة إلى السودان في كتاب(رحلاتي لبلاد السافانا) الأقصر من حيث المساحة السردية التي يشغلها الكتاب، تعود أسباب الرحلة إلى دعوة من طرف الأمانة العامة لمجلس الشباب العربي الإفريقي سنة 2017م، والتي مقرها بالخرطوم، والتي تعنى بهموم الشباب الإفريقي ومشاكله، وكان لتجربة الروائي في روايته(كاماراد) التي تعنى بموضوع الهجرة غير الشرعية للأفارقة، وهكذا يأتي نص الرحلة ما بين سردية الذات وصورة الآخر التي نرى أنها مختزلة، ولعل مرد ذلك لقصر الفترة الزمنية للرحلة التي تأتي في إطار علمي، هذا لا يمنع من التقاط صور عن ثقافة الآخر فنجده يقول:" عبرنا شارع النيل الممتد، النيل على شمالي، والبنايات الحكومية والوزارات على يميني، المعمار الانجليزي واضح، الشوارع واسعة قليلا، أشجار الأكاسيا وبعض أشجار دول الساحل على جانبي الطريق، هكذا بدت لي الخرطوم، مدينة إفريقية بامتياز، تشبه تلك العواصم الإفريقية التي زرتها من قبل كنيامي وواقادوقو، لولا بعض الفروق في اللمسة الفرنكوفونية المميزة لتلك العواصم، ورغم هذا، يظل وجه الخرطوم متجانسا مع طلعة تلك الحواضر، المهم اخترقنا الطرق ومقاطعها، حتى وصلنا مقر الهيئة الداعية(مجلس الشباب العربي الإفريقي)"[2] ، الرحلة إلى السودان كانت فرصة للرحالة في التعرف على وجه السودان الثقافي الذي يعنى بشؤون الأفارقة وهمومهم، من منظور الهجرة غير الشرعية- رؤية أدبية، هذه المواضيع التي يمكن أن تمنح القارئ صورة عن الإفريقي وهو يتطلع إلى الهجرة نحو الآخر الذي يرى بأنه فرصة للهروب من شبح البطالة والتخلف وضعف التنمية لدى الشعوب الإفريقية، تأتي للرحلة بالنسبة للرحالة الصديق حاج أحمد ليتقاسم هذه الهموم عبر الكتابة الأدبية التي صورتها روايته (كاماراد- رفيق الحيف والضياع)، التي تصور رحلة الهجرة غير الشرعية من منظور أدبي يبحث في الأسباب والتداعيات، وبالعودة إلى نص الرحلة نجد الرحالة يحفل بالموروث المادي والثقافي الذي يشكل طبيعة المجتمعات الإفريقية، فالأكل يمثل خاصية تختلف من مجتمع إلى آخر كونه يرتبط بإكرام الضيف، ويمثل موروثا متداولا في ثقافات الشعوب، فبعد الندوة يتوجه إلى مطعم تقليدي مرموق في تقديم وجبات الأسماك فيقول:" اللافت في المطعم ، مسحة البساطة الجميلة، عند مدخله وكراسيه الخشبية، وطقوسه العامة، تناولنا ألوانا متعددة من السمك، سمك بلطي مشوي، مقلي، طبق أقاشي والفرايد، وهي أطباق

[1]- المرجع نفسه، ص123.

[2]-المرجع نفسه، ص135.

معروفة في قاموس المطبخ السوداني، لأنواع الأسماك كسمك العجل، وسمك البياض، وسمك القرقور، بالإضافة إلى لأطباق سلاطة الخضار، أما المشروب فهو صنع محلي يسمى (الشربوت) به توابل الزنجبيل والقرجال"[1].

كما كانت الرحلة فرصة للكاتب لزيارة معرض الكتاب بالخرطوم، فمثل هذه المعارض هي" فرصة مواتية، للاطلاع على المشهد الثقافي السوداني، بكل تجلياته الواقعية، كما توقفنا كثيرا بداري الريم والمصورات، لكونهما من الدور السودانية الرائدة، في نشر الكتاب الأدبي وتسويقه"[2]، تختلف إذن الرحلات في اختيار نماذجها من المكان والإنسان وتختلف اختيار صور الآخر باختلاف ثقافة الرحالة وزاوية رؤيته، كما أن طبيعة الرحلة تفرض نوعا معينا من المشاهد والصور، كما أن مدة الرحلة تساهم في تشكيل وعي الرحالة بالآخر وهو يرصد حالات التشابه والواقع المغاير، فنجد الرحالة يقارن ويشبه الأوضاع، يرسم الصور السلبية ويزينها بصور الكرم والجود، وأمل العودة، وبهذا يرى عمر بن قينة حين يقول" فكانت من مصادر صورة الرحلة للمكان والإنسان، إذن مخالطة بيئات محلية جديدة أو متجددة، وبيئات أجنبية مختلفة حيث تكشف جميعها غالبا للكاتب عن جديد لم يكن يعرفه، أو لم يكن يتوقعه في البيئة أو في سلوك الإنسان أو ربما كان له تصور عنه فقيمه"[3]، وهذا ما نجد أنه سعى الكاتب إلى إبرازه للقارئ من خلال تلك المنتخبات من رحلته التي تجمع بين سردية الذات، ونقل صور سردية عن الآخر الإفريقي بتنوعه الثقافي، فالصورة هي عبارة عن رحلة تثاقف بين دول تشترك في كثير من الجوانب الحياتية، وتختلف في الكثير من الأمور الأخرى، وما يحمد للكاتب هو رحلة المغامرة في إبراز معالم من أماكن مغيبة في الفعل السردي، والرحلة واحدة من الفنون السردية التي تعنى بالرصد الصورولوجي والبحث في أنساق المكان وأثنوغرافيا المجتمعات.

خاتمة:

في نهاية هذه الوقة البحثية التي حاولت استجلاء صورة الآخر الإفريقي في السرديات الرحلية الجزائرية المعاصرة يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

السرديات الرحلية الجزائرية تحتاج إلى قراءات جديدة، من أجل الوصول إلى مضامينها الجمالية وآليات الاشتغال السردي، الذي يبحث في الأدبية، مع ضرورة الاشتغال على الأنساق الثقافية التي تشكل الخطاب الرحلي.

رحلة (رحلاتي لبلاد السافانا) ورغم قصر مروياتها إلا أنها تمثل مادة سردية تعيد الاعتبار إلى مرويات إفريقيا التي هي مغيبة في المشهد الإبداعي الجزائري، وقد وفق الكاتب في اختيار نموذج الرحلة لما تحمله من أوعية أبستمولوجية، يمكن للقارئ أن يرصد من خلالها التنوع في المرويات.

تعدد الصور المرصودة للآخر الإفريقي في نص الرحلة بين السلبية كالفقر والتخلف والجهل، والإيجابية كالكرم والجود وحسن الضيافة، كما رصدنا حضور الذات الساردة باعتبارها فاعلة في تشكيل مسارات الحدث، والذي وجدنا فيها تنوعا في الضمائر بين المخاطب والغائب.

---

[1]- المرجع نفسه، ص139.

[2]-المرجع نفسه، ص142.

[3]-عمر بن قينة، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، ط1، 1995م، ص110.

الرحالة والروائي الصديق حاج أحمد من الأقلام الواعدة والأصيلة التي تعنى بهموم الإنسان الصحراوي، وتحاول دوما مقاربته سرديا من خلال الأعمال التي ينتجها، وهي فرصة من أجل مقاربه التيمات التي يحاول أن يؤسس لها من خلال مشروعه السردي.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- حاج أحمد الصديق، رحلاتي لبلاد السافانا النيجر–مالي – السودان، الجزائر، منشورات الوطن اليوم، د ط، الجزائر، 2019م.

المراجع:

-الغشتول الحسن، خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز، الرياض، المجلة العربية، د ط، 1439هـ.

-بن قينة عمر، الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، برج الكيفان، الجزائر، دار الأمة، ط1، 1995م

-بوعزة محمد، سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، بيروت، منشورات ضفاف، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2014م.

-بولعسل كمال، رحلة أبي حامد الغرناطي دراسة في فضاء الرحلة، الجزائر، نوميديا للنشر والتوزيع، ط2، 2013.

-جبار سعيد، من السردية إلى التخييلية، بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، بيروت، منشورات ضفاف، المغرب، دار الأمان، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2013م.

- حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي، التجنس– آليات الكتابة– خطاب المتخيل، مصر، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، 2002م.

-صحراوي إبراهيم، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، بيروت، دار العلوم العربية، ناشرون، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2008م.

المقالات العلمية:

-العبيدي ليلى، ملامح من صورة الآخر نماذج من أدب الرحلة القديم، مجلة فصل الخطاب، تيارت، الجزائر، مجلد11، عدد01، مارس2022.

-عبد النبي ذاكر، مجادلة السائد في الدراسات الرحلية، أعراض الأزمة وأفاق البحث، مجلة آفاق، المغرب، الرباط، عدد62، يناير1999م.

-يقطين سعيد، خطاب الرحلة العربية ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد الأدبي، النادي الثقافي الأدبي، السعودية، عدد09، سبتمبر1993م.